النقد والقومية العربية

بقلم الدكتور عبد الستار الجواري

القومية العربية، هذا الشعاع الذي يسطع في دنيا العروبة اليوم سطوع الشمس ينير السبيل الى المستقبل الباسم والغد السعيد .

هذا النور الوهاج الذي يعمر القلوب ويطفح على قسمات الوجوه ، يبعث في السواعد قوة العزيمة وفي الابصار نفاذا في البصيرة .

هذا الروح القوي الذي يشتمل على الشعب العربي في وطنه المترامي الاطراف الوسيع الرقعة .

والعرب ، هذا الشعب الذي تتآمر عليه قوى العدوان تمزق شمله وتفرق جمعه وتدس له في عقر داره داء وبيلا وشرا مستطيرا ، انه يريد ان يجمع شمله ويوحد صفه ويدرأ عنه مؤامرات الاستعمار وعدوانه . انه يتطلع الى وحدة شاملة تنظم ما انفرط من عقده وتمهد له سبيل العمل في خدمة نفسه واستثمار ثروته واصلاح ما افسده الاستعمار والاستغلال من شأنه ، حتى ينهض بعد الكبوة ويتحمل عبء رسالته الخالدة في خدمة الانسانية واقرار السلام والامن في الارض .

هذا الشعب الذي يعرفه التاريخ شعبا ذا رسالة حَمّلها فحملها واداها احسن ما يكون الاداء ، وتعرفه هذه الارض رسول خير وطمأنينة . يعمر ولا يخرب ، ويبني ولا يهدم. انه يريد اليوم ان يعبىء قواه للانبعاث حتى لا يؤتى من مأمنه ولا يغزى في عقر داره .

والادب ، هذا الفن الانساني الرفيع ، انه هو مرآة الحياة تنعكس في صورتها واضحة مؤثرة ، وهو عنصر التوجيه في حياة الامة ، وهو معقلها المعنوي الخطير ، لا بد ان يكون في مأمن من عوامل الهدم الخفية التي تتسلل منه الى كيان الامة كما يتسلل السوس وينخر فيها حتى يأتي عليها.

ونقد الادب هو الزمام الموجه الذي يصف جانب الاحسان فيه ، ويدفع الى الاستزادة منه . بل هو الحارس الامين يحميه من الانحراف ويقوده في السبيل السوي المستقيم.

ولقد كان الادب العربي اول معقل طمح اليه الغزاة ورسموا خطة اقتحامه حتى ينفذوا منه الى صميم الامة العربية، الى فكرها وشعورها وكيانها المعنوي . وكلنا يعلم كيف تسللت الشعوبية الى الشعر تثلب فيه العرب وتهدم ماضيهم حتى لا تكاد تبقي على حسنة من حسناتهم او مفخرة من مفاخرهم .

وكأنها عرفت مكان الادب والشعر خاصة من حياة الامة العربية ، فاتخذت منه وسيلة للطعن عليها والافتراء عليها فكان بشار وكان غيره من الشعراء ، وكان البرامكة وغيرهم من حكام الاعاجم مصدر الايحاء والتوجيه لاولئك الشعراء يمدونهم بالمال وبغير المال يغرونهم بهجاء العرب وتشكيكهم في انفسهم ، ويحملونهم على فصم صلتهم بالماضي الذي يستمدون منه القوة ويحتمون به من اسباب التفسخ والهدم.

وقد كان لهم ما ارادوا الى مدى بعيد ، اذ اصطنعت في الادب معايير جديدة وانصرف الذوق الى الاعجاب بوصف مجالس اللهو والشراب والعبث حتى كاد الادب العربي يتحول عن مكانه في حياة العرب فلا يعود ديوان مآثرهم وسجل مفاخرهم ، بل يصبح مرآة لهوهم وعبثهم وانصرافهم الى الهزل وانغماسهم في الشهوات .

ولكن ميدان الادب العربي لم يخل لهؤلاء يعبثون فيه ويخربون ، بل لقد كانت طبيعة المناعة في الامة العربية لهم بالمرصاد ، فلم تعدم طائفة من سراة العرب أحست بأن عليها ان تكافح وأن تقاوم وان تقف في وجه هذا الفساد فكان قادة الجيوش من العرب امثال معن بن زائد الشيباني وأبي دلف القاسم بن عيسى العجلي وحميد بن عبد الحميد الطوسي يبسطون حمايتهم على نزعة قومية عربية تأبى التفريط بالمقومات العربية في الحياة الاجتماعية ، وفي الادب والادباء كانت لهم الغلبة آخر الامر (فاما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض) .

لقد اراد ت الشعوبية ان تنحرف بالادب العربي ،موضوعه واسلوبه عن الطبيعة التي ركب عليها ، عجزا منها عن الجري في ميدانه والاخذ بأساليبه وموضوعاته فجهدت ان تجعل من موضوع التفسخ الخلقي العام موضوعا ينصرف اليه الشعراء عن رسالة الشعر التي يعرفها العرب ويعرفون لها قدرها

ولولا خلال سنها الشعر ما درى
بناة المعالي كيف تبنى المكارم

فتغزلوا بالمذكر وامعنوا في وصف الخمر ومجالسها امعانا مريضا لا مبرر له ، واقذعوا في الهجاء اقذاعا يزري بالكرامة ويستهين بالرجولة والانسانية ، وما امر بشار وحماد وجماعتهما عنا ببعيد .

واستشعرت الشعوبية ضعفها في اللغة وعجزها عن الاصابة في التعبير بها فلجأت الى تفسيخ الاسلوب وتهجينه حتى احالته الى العامية او قريب منها ، وحتى صار ابو العتاهية وهو واحد من اقطابها في الادب يفاخر بأنه لو اراد ان يفعل كلامه كله شعرا لفعل .

وقد كان من هم الشعوبية في الادب وفي نقده ان تقطع الصلة بين الادب العربي وماضيه المجيد ، وتقيم لتقدير الادب ولا سيما الشعر موازين جديدة .

وقد كان من حظ القومية العربية ان النقد الشعوبي لم يكد يظهر بين الناس آراء يتناقلونها وملاحظات يتداولونها حتى برز له من يقوم في وجهه ويقطع عليه سبيل التطور والتكامل . وقد قام له اول الامر نقاد مبصرون ذوو دراية وذوو رواية جمعوا من الادب القديم الاصيل ما استطاعوا واتخذوه مثلا يتمثلونه وقدوة يقتدون بها. فكان امثال ابن قتية وابن سلام يحملون لواء الدعوة الى تقدير الادب بالاضافة الى ما استخرجوا من الادب القديم من المعايير والقيم . وكان ارفع تلك القيم واسناها ما دعوه الاصابة في التعبير والقدرة على معالجة الاغراض الادبية المختلفة والتصرف في المعاني تصرف الاصيل المبدع ، الموجز في غير اخلال ، المبين في غير اطالة .

ثم جاءت بعدهم طبقة اخرى الفت في الادب بمعناه الواسع وما يشتمل عليه من نقد قائم على اساس فقه العربية نحوها وصرفها وبيانها ، فأكدت مذهب السابقين واثبتت ان سبيل العرب الاولين هي الاقوم وان الادب العربي طبيعة تقبل التفسير العلمي والتعليل والتوجيه الفني . على انها اضافت الى ما كان عند سابقيها فضيلة الاقرار بما للمحدثين من فضل اذا سلكوا في الادب السبيل الواضحة واستندوا فيه الى الطبع والى الثقافة . ونحن نلحظ ذلك عند ابي العباس المبرد في الكامل واضحا كل الوضوح فقد عنى بالنوابغ من معاصريه واستشهد لهم واشاد بهم ، ومن هؤلاء عمارة بن عقيل وابو تمام الطائي.

وكانت نهاية هذا الصراع بين الشعوبية والقومية العربية انتصارا للقومية العربية أفاد منه الادب فوائد لا يتسع المقام للافاضة فيها . فقد انتهى ذلك الى احتفاظ الادب العربي بمقوماته وعناصره الاصيلة ، وأفاد من الحياة الجديدة ما لا يخالف طبيعته ولا يزري بفنه الرفيع ، وجانب الوعورة والاغراب حتى لا يستغلق فهمه على اهل العصر ولا يبعد عن واقع حياتهم ، فكان شعر ابي تمام والبحتري ، ثم علا حتى بلغ القمة عند ابي الطيب والشريف الرضي وأبي العلاء. وكان الجاحظ وابو حيان التوحيدي من الكتاب .

واليوم تتعرض القومية العربية لمثل ذلك الصراع ، ويستهدف الادب العربي في بعض ما يستهدف لشعوبية من لون جديد ، لنقد معجب بحضارة الغرب وثقافته وأدبه ينكر عليه خصائصه الاصيلة ويعتدها اثرا قديما غير جدير بالبقاء ولا خليق بالاتباع . ولطالما سمعنا من بعض النقاد ان اسلوب الادب القديم لم يعد يلائم حاجة النفس في هذا العصر ، وان آلة الاديب لم تعد تحتاج الى وقود من علم العربية وفقهها ونحوها وبيانها ، وان التزود بالثقافة الادبية القديمة وتذوقها لا يجدي على الاديب ولا يشحذ عبقريته وان في هذا جناية على فن الادب تحول بينه وبين التطور والاخذ بمذاهب الفن الحديث . ويأخذ الاخرون على الادب العربي انه لم يواكب الاداب العالمية في فنونها الادبية كالقصة والمسرحية والرواية ، ويرد ذلك الى اسلوب التعبير الموروث في الشعر وفي النثر معا ، وان هذا الاسلوب هو الذي يشغل الاديب بالجانب اللفظي ويصرفه عن استيعاب ما استحدثته الحضارة الحديثة من افكار ومشاعر وأحاسيس والوان في الحياة جديدة طريفة .

وهذه النزعة انما تحاول من بعض الوجوه ان تسف بأسلوب الادب الى العامية حتى يفهمه الجمهور على حد ما تزعم : وحتى يستطيع الاديب ان يعبر عن عواطف المجتمع ومشاعره . ولسنا ننكر على احد ان يكتب او يقول الشعر بالعامية او يقتبس من حضارة الغرب ما يشاء وما يستطيع ولكنا نريد لادب العرب ان يستجيب للقومية العربية ، وأن يعمل على الاحتفاظ بخصائصها ويكون صوتها المدوي في الافاق ، وأن يكون احدى الوسائل الى تثقيف الجمهور وتوجيهه ، وان يبقى كما كان من قبل مظهرا من

ترقبوا

عدد

الجزائر

من

الثقافة العربية

مجلة فكرية عربية فصلية

يصدرها

النادي الثقافي العربي - بيروت

اشمل مجموعة من الدراسات

صدرت بالعربية عن الجزائر

عدد كانون الثاني ١٩٥٧

مظاهر الوحدة بين العرب في التفكير وفي الشعور وفي الكفاح والجهاد .

وثمة كلمة حق تلهج بها السنة النقاد المعاصرين الذين يريدون للادب العربي ان يتبوأ مكانه الحق في الحياة العربية، انهم يريدون للادب ان يعنى بصميم رسالته وان ينصرف الى تحمل تبعته الاجتماعية فلا يظل تعبيرا ذاتيا ضيق الحدود يشتغل فيه الاديب بخاصة نفسه ، لذته والمه ، مغنمه ومغرمه ، او يتخذ منه آلة يطرب بها ذوي السلطان لينال رضاهم او يتقي اذاهم ، ثم لا يهمه بعد ذلك ان يندمج بالمجتمع ويعيش في صميمه فيكون رائده الى الحياة الكريمة وقائده الى المستقبل السعيد .

وبعد ، فانا نستطيع ان نطمئن الى مستقبل الادب العربي اطمئناننا الى مستقبل الامة العربية والقومية العربية. ونحن واثقون بأن الادب العربي سيخرج من معركته هذه ظافرا شأنه في تجربته الاولى ، وسيخرج من هذه المعركة بذخيرة قيمة من حضارة العصر ويستجيب لرسالته الكبرى في التعبير عن آلام الشعب العربي وآماله .

ونحن نستطيع كذلك ان نطمئن الى مستقبل النقد الادبي فهو لا بد ان يقوم على الدرس الواعي لتراث الادب العربي والدراية المدركة لمقوماته وخصائصه الاصيلة ، وهو على كل حال لن يكون طوع الاهواء تخرج به عن هدفه وتبعد به عن غايته ، وتقحم فيه ما لا تألفه طبيعته وتحمله على تقليد غيره بلا روية ولا ادراك . وهو لا بد ان يكون في صميم المجتمع العربي الحديث فلا يحلق في الضباب ولا يتيه في أجواء من الدخان المسموم .

★

فلنثق بأنفسنا وبتراثنا وخصائص قوميتنا ثقة تحملنا على التجويد والابداع فيما نحسن من ضروب الحياة، وتبصرنا بمزايانا وما نستطيع ان نتحف به ابناء الانسانية من صور حضارتنا وتراثنا وما ينبع من اعماق نفوسنا المتطلعة الى الحق والخير .

وعلينا ان نفهم ان التقليد لن يبلغ بنا مبلغا من الاجادة والابداع في اي جانب من جوانب الحياة ، ويخلق منا صورة ممسوخة لمن نقلد ، ويحرمنا شرف الاسهام في الحضارة البشرية التي تتطلع الى الجهد الاصيل المنبثق من طبيعة سليمة قوية .

عبد الستار الجواري

كل القراء
كل النقاد
كل الأدباء
اكتوا ان إحسان قد بلغ الذروة في قصصه السابقة .. ولكن قصته الجديدة .
في بيتنا رجل
تثبت للجميع ان إحسان عبد القدوس يستطيع دائماً ان يتفوق على نفسه في كل انتاج ادبي جديد
٦٠٠ صفحة على ورق ممتاز واخراج فاخر الثمن ٦ ليرات لبنانية
نشر وتوزيع المكتب التجاري بيروت